٧ – منيرة المهدية وأم كلثوم بين الأصالة والمعاصرة(*)

منيرة المهدية مطربة التخت الشرقاوية (١٨٨٨ – ١٩٦٥) التى تربعت على عرش الطرب لفترة بعد أن عرفها جمهور القاهرة مطربة وراقصة فى مقاهى ومسارح الأزبكية، كانت أغانيها معبرة عن قيم مرحلة معينة تساير الذوق السائد وتتملق الغرائز التى عاشها المجتمع المصرى فى ذلك الوقت حيث كان المغنون والمستمعون يتبعون طريقة "الهنك والرنك"، و "يا سيدى آه"، و"أمان أمان" ويظل المطرب طوال الليل يتوجع ويتثنى ويتمدد والسميعة حوله يمارسون نفس الطقوس.(١)

وأم كلثوم الفلاحة المصرية إبنه "طماى الزهايرة" بمركز السنبلاوين دقهلية (١٩٠٤–١٩٧٥) التى ارتدت ملابس الفتيان ولبست البالطو والكوفيه والعقال على الطريقة البدوية، والتى لم تغنى فى البداية سوى الأغانى الدينية، وكانت الموالد بمثابة المدرسة الأولى التى تربت وترعرعت فيها، ثم صعدت إلى قمة المنافسة مع منيرة المهدية واستطاعت أن تترك مسافة غير قصيرة بينهما.

لماذا انطفأ نجم منيرة التى كانت كلمتها لدى كبار رجال الحكومة لا ترد، وكان الوزراء يتقربون إليها لدرجة قيل معها ان "حسين رشدى باشا" كان يعقد جلسات مجلس الوزراء فى عوامتها ، وأن "عبد الخالق ثروت" "واسماعيل صدقى" كانا من عشاق صوتها، وبرز نجم الفلاحة المصرية الموهوبة التى كان لا حول لها ولا قوة سوى حنجرتها وابتعادها عن كل ما يسئ إلى فن الغناء؟ قد يقول البعض ان صوت أم كلثوم كان جميلا وهذه حقيقة، ولكن لا ينكر أحد أن صوت منيرة المهدية كان جميلا ايضا، فقد كانت سيدة الليالى الملاح بصوتها وبحته المثيرة وأغانيها التى كانت تدور حول ذوق السميعة ورغباتهم وتهز أوتار قلوبهم، ولكن الفرق بينهما أن صوت منيرة كان صوتا جميلا بلا فن، بينما كان صوت أم كلثوم صوتا مرهفا ذواقا، فقد كانت أم كلثوم تعيش النغم بكل وجدانها بل وكيانها خاصة وأنها كانت لا تغنى اللحن فحسب بل كانت تعيشه وتحياه كما انها كانت تحترم فنها ونفسها وهذا هو الفرق بينها وبين منيرة، يضاف إلى ذلك أنها كانت شديدة الميل إلى التجديد، كما كان صوتها العبقرى وأداؤها الذكى أول درجتين فى صعود نجمها على نجم منيرة المهدية، وفيما يلى نعرض لكل منهما.

أولا: رحلة منيرة المهدية مع الغناء:

بدأت زكية حسن منصور التى أطلق عليها منيرة المهدية بعد أن احترفت فن الغناء بدأت رحلتها مع الطرب كمغنية فى مقاهى الرقص وحفلات الأفراح ولم تبرز شهرتها إلا فى عام ١٩١٥ بعد أن حضرت إلى القاهرة وغنت ورقصت فى ملاهيها، ثم ازدادت هذه الشهرة بعد انضمامها لفرقة "عزيز عيد" الكوميدية لتغنى أغانى "الشيخ سلامة حجازى"، وكان نجاحها يرتكز على جمالها الفتان فقد كانت – كما يذكر الدكتور عبد الحميد زكى– مضيئة الملامح، وضاءة الجبين، زرقاء العينين، كستنائية الشعر فارعة الجسم وهبها الله صوتا عذبا جميلا يهز أوتار القلوب، وقد تعاونت كل هذه الصفات فى نجاحها، واجتذاب جمهور المستعمين نحوها خاصة وان بحه صوتها المثيرة وأغانيها المكشوفة التى تتعرض لما يدور وراء الستارة وفى المندرة كانت تساير متطلباتهم والتى كان أبرزها أغانى "عصفور أهشه وانكش له عشه" وعصفورى يامه عصفورى" و"ايه اللى جرى فى المندرة شئ ما اعلموش ساعتها.. ساعة ما جرى أنا كنت لسه صغيرة" و "ارخى الستار اللى فى ريحنا.. أحسن جيرانا تجرحنا" و"تعالى بقى يا شاطر نروح القناطر" و "هات القزازة واقعد لاعبنى.. دا المزة طازه والحال عاجبنى" وقد استطاعت منيرة المهدية بهذه الأغانى ان تشجى الجمهور وتطربه وتحوز رضاه واعجابه حتى اطلق عليها "سلطانه الطرب" والمطربة التى كان الذهب ينثر تحت قدميها، ثم ازداد

(*) نشرت هذه الدراسة فى مجلة الشرطة فى عدد نوفمبر ٢٠٠٦.

اسمها لمعانا بعد عملها بالمسرح خاصة بعد أن اتفق معها "عزيز عيد" لتقوم بالغناء فى لياليه التمثيلية بمسرح "برنتانيا"[٢]، وظلت منيرة تطرب جمهور المسرح بقصائد الشيخ سلامة حجازى وغيرها حتى كونت فرقة خاصة بها واستمر نجمها ساطعا حتى ظهرت أم كلثوم، وبدأ جمهور هواة الطرب ينصرف عن الاستماع إلى الغناء القديم، وتسيطر عليه روح الفن الجديد، وبينما تمكست منيرة بالمحافظة على أصول فنها الذى تشكلت أوتار حنجرتها عليه حتى جاءت أم كلثوم بحنجرة جديدة حافلة بكل ألوان التجديد مما أدى إلى لمعان اسمها بينما خفت بريق منيرة المهدية، وجعل عرش الغناء تهتز من تحتها رغم ما أحيط به من صولجان وأبهة خاصة وانها لم تستطع التخلص من عدوى الغناء العثمانى والغجرى[٣]، ومن جلسات الغناء فى الصالات والمسارح التى كان يغرق فيها المستمعون فى بحار الخمر والعربدة والكلمات غير اللائقة.

ثانيا: رحلة أم كلثوم مع الغناء:

بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها "ابراهيم البلتاجى" المنشد فى الموالد وأفراح القرى، وهى ترتدى الشال والعقال وملابس الصبيان، وغنت شوامخ التراث الدينى الصوفى الذى قام والدها بتحفيظه إياها، ثم التقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ "أبو العلا محمد" احد أعمدة الغناء العربى والذى تصادف وأن سمعها فى القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف انه موجود فى القطار، وبتوجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة فى عام ١٩٢٢م وأخذت تغنى فى "مقهى سانتى" بالأزبكية وفى "مسرح البوسفور" فى ميدان باب الحديد بدون فرقة موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية وخلال هذه الفترة كان الشيخ "أبو العلا" بمثابة الأب الروحى والمدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها، ونقل ذوقه الفنى إليها، ودرب حنجرتها على الألحان العربية الصميمة، وبدأ بتحفيظها قصائد "عبده الحامولى" ويدربها على ألحانه، ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تلخيص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والغجرى، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا رقيا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقده وينطلق بالموسيقى العربية فى آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى، وعن همومه وأفراحه.[٤]

وقد وجد الشيخ أبو العلا فى أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معا فأخذ على عاتقه تبنى هذه الموهبة، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية فظهرت أمام الجمهور فى القاهرة ، وكان ذلك خلال حفل للكشافة المصرية فى عام ١٩٢٣ بأغنية "مولاى كتبت رحمة الناس عليك فضلا وكرما". ولم تكد تبدأ الغناء حتى ظهرت ملامح الرفض عليها بين المستمعين فتنهد أحدهم قائلا "كتب علينا الغلب يا أختى" وانفجرت موجه عالية من الضحك بين الناس مما أدى إلى بكاء المطربة الناشئة وتطرق اليأس إلى نفسها، ولكنها استطاعت أن تسترد ثقتها بنفسها بفضل أستاذها الشيخ أبو العلا الذى أوضح لها أن جمهور المستمعين مادة خام يمكن تطويعها تدريجيا.

وعلى الرغم من تمسك جمهور المستمعين بمطالبة ام كلثوم بغناء الأغانى السائدة، فقد رفضت ان تساير الموجة، وعبرت عن أصالة الفنان مدركة أن جوهر دوره هو أن يهذب الأذواق ويرتفع بمستوى جمهوره ويسمو بمشاعره.

وظل الشيخ أبو العلا بجانب أم كلثوم حتى وقفت على قدميها فغنت له عشرة الحان منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب"[٥]، وتشاء الظروف ان يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد

الرازق وأسرة آل المهدى وهما من الأسر المعروفة برعايتها للعلم والفن. ومن خلال هاتان الأسرتان استطاعت أم كلثوم ان تتعرف على النخبة المثقفة فى مصر. وأثناء ذلك بدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه.

وهكذا افتتحت أم كلثوم عهدا جديدا فى غناء القصيدة العربية، ونجحت أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة، وعلى ألحان جديدة كما ارتبط ظهورها بثروة قومية فى الموسيقى والطرب.[٦]

ثالثا: موقف منيرة المهدية من أم كلثوم:

بعد أن جاءت أم كلثوم من قرية "طماى الزهايرة" إلى القاهرة تاركة من خلفها عيدان الذرة وسنابل القمح وغطت شهرتها على مطربات عصرها أمثال منيرة المهدية، وتوحيدة، ونعيمة المصرى، وفتحية احمد وغيرها.

بدأت منيرة المهدية تعلن عليها الحرب، وتحاول الاساءة إليها خاصة بعد أن سمعت أن جماهير الطرب تحولوا إليها، فحاولت ان تعرف سر ذلك، حتى يمكنها مواجهته. وفى أحد الليالى ارتدت منيرة المهدية ملاية لف ووضعت على وجهها برقعا وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغنى أم كلثوم، واشترت منيرة تذكره فى أعلى التياترو وهى أرخص مقعد فى المسرح، وجلست تسمع ام كلثوم وسط تهليل المستمعين وهتافاتهم بحياتها. ولم تحتمل منيرة المهدية ان تحضر أكثر من الوصلة الأولى من غناء أم كلثوم فتركت المسرح غاضبة ساخطة، وعادت إلى عوامتها فى النيل وهى تكاد تجن غضبا وسخطا، وأخذت تفكر كيف تقضى على هذه الفلاحة التى أصبحت تهدد سلطانها وهداها تفكيرها إلى اللجوء للصحافة وشراء ذمم بعض كتابها، فأصبحت مجلة المسرح هى مجلة منيرة التى تهاجم أم كلثوم وتحاول الإساءة إليها فى عفتها وشرفها. [٧] مما دفع والدها إلى التفكير فى مغادرة القاهرة، والعودة بابنته إلى "طماى الزهايرة".

يضاف إلى ذلك أن أم كلثوم تعرضت للعديد من الافتراءات والاتهامات بهدف اشغالها عن فنها، فادعى رجل من ذوى الأملاك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا بأنها زوجته، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمته، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التلفونية التى كانت ترهق أعصابها، كما حاولت سلطانة الطرب منيرة المهدية الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتها المنافسة الأولى لها، وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية، ويقف من خلفها التخت، وتردد بعض الأغانى الدينية والطقاطيق متحدية بذلك أم كلثوم الحقيقية. وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد، نشرتها الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها. كما كانت تكتب فى اعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتفت وراءها، واختفت الفتاة الأخرى خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود، ووقفت كالطود الشامخ تتكسر الأمواج تحت قدميها، وصمدت لكل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف. لا تهتم إلا بفنها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها، وصوتها الجميل. وقبل ان تستسلم منيرة لفشلها النهائى حيال مواجهة صوت أم كلثوم طلبت من الملحن رياض القصبجى- الذى قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر ثلاثين لحنا كانت تعد أعلى صيحة فى التجديد الغنائى – أن يلحن لها أغنية على غرار أغانى أم كلثوم، واستجاب القصيحى لنداء منيرة، فلحن لها أغنية حافلة بالوان التجديد ولكنها – كما يقول كمال النجمى – لم تستطع أن تكسب شيئا من هذه الأغنية لأن صوتها العثمانى الغجرى ونطقها العاجز أفسدا الأغنية، وطمسا معالم التجديد فيها.

منيرة المهدية وأم كلثوم كشهود عيان لفترات مهمة من تاريخ مصر:

منيرة المهدية وام كلثوم من الشخصيات التى يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصرى، خاصة وأن كل منهما تحمل فى حياتها قصة هذا الشعب، وقصة العصر الذى عاشته فقد عاصرت كل منهما عهد الخديو عباس الثانى والحماية البريطانية على مصر، وعهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية، وعاصرت فترة ابنه فاروق كما عاصرت قيام ثورة يوليو، وتوقيع اتفاقية الجلاء، وتأميم قناة السويس والسد العالى والصحوة السياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والتى عبرت عنها أم كلثوم فى أغانيها، وعاشتها منيرة المهدية ولكن بعد انطفاء نجمها لذلك فان حياة كل منهما تذكرنا بجزء منهم من حياة المصريين، ومن تاريخ مصر الحديث وبفترة المخاض التى عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا فى العبور بمصر فى تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين. فقد عاشت كل منهما عصر الكفاح الوطنى ضد الانجليز فى كافة مناحيه السياسية والاقتصادية والفكرية فشهدا عصر مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وطلعت حرب ومصطفى عبد الرازق واحمد شوقى وطه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، وغيرهم، وشاركا بفنهما فى تفجير طاقات الانسان المصرى، وكانتا أحد العوامل المؤثرة فى بعث الشعور الوطنى خاصة وأن مصر كانت تئن تحت وطأة الاحتلال الانجليزى الذى فرض وصاياه على كل مقدرات المجتمع تقريبا، فغنت أم كلثوم لسعد زغلول وانشدت لفلسطين ولابطال الفالوجا ولأعياد مصر الوطنية جميعها[٨]، كما غنت منيرة المهدية لسعد زغلول ولثورة ١٩١٩[٩]، يضاف إلى ذلك أن الحكومة التركية برئاسة كمال اتاتورك دعتها للغناء، واستقبلت هناك استقبالا حافلا.

ومما سبق يتضح أن منيرة المهدية كانت ذات صوت لامع عريض يرتفع بقوة حيث تنفجر منه تلك البحة المشهورة التى زادته إثاره وتفردا، ومع ذلك فقد كانت محدودة المقدرة على الأداء أما أم كلثوم فقد استطاعت أن ترتقى بفن الغناء وفق تخطيط مدروس وثقافة عالية ونغمة صافية للحب والسعادة حتى لقبت بقيثاره السماء، وكوكب الشرق.

وهذا كان السبب فى أن منيرة المهدية انزعجت من ظهور ام كلثوم ولم تصمد أمامها، بل انسحبت من الميدان بعد منافسة حامية.[١٠]

الهوامش

١- زكريا هاشم: أم كلثوم تحفة العصر ومعجزة الدهر، القاهرة، مطبعة التقدم ١٩٨٣، ص ٩.

٢- الأخبار فى ١٩١٥/٨/١٨ ومجلة المسرح فى ١٩٣٧/٥/٣٠.

٣- سيد على اسماعيل: مسيرة المسرح فى مصر ١٩٠٠- ١٩٣٥، جـ١، فرق المسرح الغنائى، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣، ص ٣٨٥.

٤- رجاء النقاش: لغز أم كلثوم، القاهرة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، ص ١٠٧.

٥- سهير عبد الفتاح: حياة صوت أم كلثوم، القاهرة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢، ص ١٧-٢٠.

٦- كمال النجمى: الغناء المصرى، القاهرة، كتاب الهلال سبتمبر ١٩٦٦، ص ٥٥

٧- مجلة المسرح فى يناير ١٩٢٧، واشرف توفيق: اشهر قصص الغرام، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٩٦، ص ١٠٠- ١٠٢.

٨- للتفاصيل انظر حنفى المحلاوى: سيدتان من مصر، خفايا الصراع بين ام كلثوم وجيهان السادات، القاهرة، دار الشباب العربى، ١٩٩٤، ص ٢٨-٢٩.

٩- اشرف توفيق: أشهر قصص الغرام، ص ٩٨.

١٠- كمال النجمى: الغناء المصرى، ص ١٠٢.